٤

WWW.ATTAWEEL.COM

أسئلة الكتاب صـ ٢٠

ادب الرحلات العراقي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

دراسة

د. محمد حسن علي مجيد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ان الغريزة حب السفر والترحال ، وارتياد المجهول ، وطلب المعرفة والاستطلاع ، واكتشاف الغريب من اهم غرائز الانسان ، لذلك شُغِفَ بحب التجوال والاطلاع منذ اقدم العصور ، فقد قام المصريون القدماء برحلات طويلة في الآفاق ، ثم الفينيقيون ثم الاغريق فالرومان[1] ثم رحلات العرب قبل الاسلام الى انحاء الجزيرة العربية وخارجها الى اليمن والحبشة والشام والعراق . وحسبنا ان نشير الى رحلتي (الشتاء والصيف) اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم مما كان يقوم به في كل عام التجار والرحالة العرب الى جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، ثم جاءت رحلات العرب المسلمين منذ البعثة النبوية المباركة حتى القرن العاشر الهجري[2] (السادس عشر الميلادي) ، حين قلّت حركتهم ، ودخل السفر والترحال في عصر هدوء نسبي وخمول في الحركة والتنقل ، وذلك بسبب الاجتياح الاجنبي للبلاد وسيطرته عليها ، واستبداده بمقدارتها ، وخطورة السفر ، وتخريب الطرق ، وقلة وسائط النقل ، وسوء المسالك وكثرة قطاعي الطرق ، وفقدان الامن وفساد الادارة ، ورداءة الحالة الاقتصادية ، حتى بدأ نشاط الاوربيين في القرون المتأخرة والعصر الحديث ، وكثر سواحهم ورحالتهم ، وصاروا يجوبون بلاد الشرق بالعشرات ، تحت اسماء شتى وعناوين كثيرة مختلفة ، فمن المنقبين عن الآثار الى مبشرين وتجار ، او رحالة وسياح ، او مهندسين واطباء ، او باحثين وخبراء ، او بصفات كثيرة اخرى غيرها[3] لقد اخترنا حقبة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ميدانا لدراسة (ادب الرحلات) فيها ، لانها تشكل انعطافاً مهماً في تاريخ العراق الحديث . فهي من اخطر الحقب وادقها واحفلها بالاحداث وذات خصوصية متميزة ، لانها ليست فترة خمول ويأس تامين ، او مرحلة خضوع واستسلام لمستعمر قوي مثلما سبقها من العصور ولا هي عصر استقلال وطني او استقرار فكري مثلما صار بعدها ، انما هي حقبة التململ والقلق على الصعيدين السياسي والاجتماعي ونشاط علمي وادبي على الصعيد الثاني ، مهّد لنهضة العراق الفكرية والاجتماعية في القرن العشرين . وهذا ما جعلنا نولي هذه الحقبة عناية خاصة . وندرس جانباً مهماً من جوانب حياتها الثقافية وهو (ادب الرحلات) فيها ، مما يلقي ضوءاً كثيراً على نوع الحياة فيها من جوانبها المختلفة من احوال الناس واتجاهات السياسة وانواع البيئة ، واشكال المدن ، وطراز العمارة ، ومظاهر الطبيعة . . . الى آخره .

ومع ان عصر القرن التاسع عشر عصر هدوء نسبي في الحركة بالنسبة للعراقيين ، وقلة في السفر والتنقل بسبب صعوبة

WWW.ATTAWEEL.COM

المواصلات ـ كما اسلفنا ـ ورداءة وسائط النقل وسوء المسالك ، وفقدان الامن وكثرة قطاعي الطرق ، فان رحلات كثيرة قام بها مرتحلون عراقيون وسجلتها كتب التاريخ والادب الى خارج العراق ، او اليه من الخارج ، هذا فضلاً عن عشرات الرحلات التي قام بها العراقيون داخل العراق لاغراض السياحة والاطلاع ، او لاغراض شخصية او تجارية او سياسية ، قطعوا بها الطرق وشاهدوا المدن ووصفوا الناس وركبوا الدواب والسفن ، هذا فضلاً عن الرحلات التي كان يقوم بها الحجاج العراقيون الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج ، ويسجلونها في مدوناتهم شعراً او نثراً باسم (الرحلات المكية او الرحلات الحجازية) مما حفلت به الكثير من كتب الادب والتاريخ والمجموعات الشعرية المطبوعة والمخطوطة . ولكن مما يلفت النظر ان هؤلاء السياح والرحالة العراقيين الكثيرين لم يذكرهم بعض من ألف في (ادب الرحلات) العربي في القرن التاسع عشر والعصر الحديث ، واغفلوا ذكرهم ، ولم يدرجوهم ضمن من ذكروا من الرحالة والسياح العرب . ولعل هؤلاء المؤلفين لم يقفوا على رحلات العراقيين هذه بسبب عدم توافر المصادر لهم ، ولان الادب العراقي في القرن التاسع عشر لم ينل حظه من الدرس والتدقيق والنشر مثلما نال ادب الاقطار العربية فيه . فقد ذكر (احمد ابو سعد) مثلا في كتابه (ادب الرحلات) الكثير من رحلات العرب في عصر النهضة من السوريين واللبنانيين والمغاربة من غير ان يذكر معهم سائحاً عراقياً واحداً ـ على كثرتهم مثلما ذكرت ـ ، فقد تحدث عن رحلات (احمد فارس الشدياق) اللبناني الى مصر ومالطة وتونس واوربا ، ورحلة (محمد عمر التونسي) من القاهرة الى بلاد السودان ، ثم رحلات (امين الريحاني) المصري الى ربوع البلاد العربية ومنها العراق . وغيرهم .

ان اهمية (الرحلات) تكمن اولاً في قيمتها العلمية حيث تزود اهل التاريخ والجغرافية والآثار والادب وغيرهم بمعلومات قيمة عن وصف البلدان والاصقاع والمدن والآثار والطرق والعمران ، وازياء الناس واخبارهم وتقاليدهم واشكالهم وعاداتهم ، ومظاهر الطبيعة ، وغرائب الحوادث والاخبار مما يملأ ويمتع ، ثم في قيمتها الفنية ثانيا ، حيث تزود القراء بمعلومات كثيرة وصور ممتعة وحوادث غريبة ، مما تؤلف رافداً ثراً من روافد الفن والمتعة الادبية .

لقد كتب السياح والرحالة العراقيون رحلاتهم في هذه الحقبة على نمطين ادبيين . هما : (الرحلات النثرية) التي كتبها الادباء (نثراً) ، والاخرى (الرحلات الشعرية) التي نظموها (شعراً) ، وهي اكثر من الاولى . وسنتحدث عن كلا النوعين ، ولكننا سنفيض في الحديث عن (الرحلات الشعرية) ، لانها ـ كما ذكرت ـ اكثر عدداً ، واجمل لغة والطف صورا ، وامتع خيالاً ، واغرب احداثاً ، واشد طرافة .

١ ـ الرحلات النثرية

رحلات كثيرة سجلتها اقلام العراقيين نثراً في هذه الحقبة ، منها رحلاتهم الى خارج العراق ، فقد رحل عدد كبير منهم الى استانبول عاصمة الدولة العثمانية ، لدوافع شتى وسجلوا رحلاتهم ، ومنهم من ارتحل الى بلاد الشام ومنهم من رحل الى ايران ، وقسم رحل الى الهند لاغراض سياسية او شخصية او تجارية ، ومنهم من سافر الى نجد والحجاز لغرض التجارة او الحج ، مما زخرت به مصنفات المؤلفين في ذلك العصر ، ومنها رحلات العراقيين في داخل العراق وبين مدنه وسجلوها نثرا او شعراً .

وطبيعي اننا لا نستطيع في هذا البحث المتواضع ان نحيط بكل تلك الرحلات ذكراً وتحليلاً وتقويماً ، انما سنشير الى اثنتين منها ، من الرحلات التي اتجهت الى خارج العراق ، حدثت الاولى في مرحلة القرن التاسع عشر ، وحدثت الثانية في مطلع القرن العشرين وهما رحلة العلامة ابي الثناء الالوسي الى الاستانة عاصمة الدولة العثمانية ، ورحلة الشيخ محمد رضا الشبيبي الى الحجاز ، وسنفيض في الحديث عن الاولى ، ونختصره عن الثانية ، وان كانت الاولى ذات طابع فردي ، والثانية ذات طابع وطني وقومي ، الا انها اكثر تفصيلا واطرف صوراً ، واطول زمناً وامتع خيالاً من الثانية .

أ ـ رحلات القرن التاسع عشر

رحلة ابي الثناء الالوسي الى الاستانة (١٨٥١ ـ ١٨٥٣م)

صاحب هذه الرحلة هو العلامة الجليل السيد محمود شهاب الدين ابو الثناء الالوسي (١٨٠٢ ـ ١٨٥٤م) ، صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم المعروف بـ(روح المعاني)[٢] الذي يقع في تسعة مجلدات كبيرة ، والمؤلفات الكثيرة القيمة التي عُرفت عنه ونُسبت اليه[٣] .

ان رحلة ابي الثناء الى الاستانة هي اشهر رحلات العراقيين المكتوبة (نثراً) في القرن التاسع عشر ، ومن اطولها وامتعها ، فقد سجلها في ثلاثة كتب ، تحدث في الكتاب الاول عن المرحلة الاولى من الرحلة ، (سماه نشوة الشمول في السفر الى اسلامبول) صوّر فيه سفرته من بغداد الى الاستانة . وقد استغرق هذا الجزء من الرحلة اربعة شهور تبتدئ من غرة جمادى الاخرى من عام ١٢٦٧هـ (١٨٥١م) ، وتنتهي في اواخر شهر رمضان المبارك من العام نفسه[٤] وهي مدة تكفي للطواف حول العالم في هذه الايام عشرات المرات ، وابرز ما فيه وصفه للطريق من بغداد الى الاستانة التي سماها (فروق) وهو موجز مشاهداته تلك ومصادفاته وبعض الانطباعات السريعة التي كوّنها وسجلها بسرعة قبل ان تغيب عن باله . والكتاب الثاني سماه (نشوة المدام في العودة الى دار السلام) وقد سجل فيه الجزء الاخير من الرحلة ، وهي ـ رحلة العودة ـ ومشاهداته فيها ، وهو مثل الكتاب الاول في الايجاز ، وسرعة تسجيل المشاهدات والانطباعات التي تعرض لها في العودة ، ويبدو ان ابا الثناء كتب هذين الكتابين خلال مشاكل السفر وزحمة الاحداث وتعب الطريق واضطراب المزاج ، فسجل خواطره فيهما قبل ان يجتاحها النسيان ويبعد بها الزمان ، لذلك اوجز فيهما ايجازاً تاماً ، كما جاءت الاحداث مضطربة فيهما ، والافكار غير منسقة والخواطر غير مرتبة ، والعبارات فيها بعض الارتباك . وقد طبع هذان الكتابان في مطبعة الولاية ببغداد سنة ١٢٩١ ، ١٢٩٣هـ ووضعا في مجلد واحد .

لكن الرجل بعد ان عاد من رحلته هذه التي استغرقت حوالي سنتين[٥] واستقرت به الدار وانحسر عنه غبار السفر واصاب قسطاً من الراحة ، عاد مرة اخرى لتسجيل احداث رحلته المثيرة من جديد في كتاب ثالث كبير : سماه : (غرائب الاغتراب في السفر والاقامة والاياب) وقد كتبه في هذه المرة : باسلوب مسهل متأنٍ يختلف عن اسلوبه في كتابيه السابقين ، وتأنق كثيراً في انتقاء عباراته واختيار الكلمة وبسط معانيه ، واطال في الوصف ، واسهب في تصوير المواقع والمدن والمشاهد والاحداث والمعالم والناس ، وذكر ما دار بينه وبين من التقى بهم من رجال العلم والسياسة والتدريس والادب اثناء سياحته هذه من مطارحات ومناقشات . وقد كان حريصاً على ذكر كل كبيرة وصغيرة عما صادفه ، فوصف المدن التي رآها او مكث فيها في الذهاب والاياب وصفها كلها بلغة جميلة ميسرة ، مطعمة بالشعر في كثير من الاحيان من نظمه او من نظم غيره . وباسلوب حافل بالمحسنات والزخرفة اللفظية ، المتأنقة بتذوق مما لايجد القارىء معه ملالاً ، مما شاع في عصره ، واستحسنه الناس حتى استحوذت احداث الرحلة واسلوبها على اعجاب معاصريه من شعراء وادباء واصدقاء[٦] .

بدأ ابو الثناء قصة الرحلة بذكر اهدافها ودوافعها ، والمعروف ان ابا الثناء قد نال في حياته حظوة كبيرة من المعرفة والرفعة والدين ، وسطع نجمه في البلاد وتسلم ارفع المناصب وبلغ من العلم اعلى المراتب ، وكتب كثيراً من المؤلفات والكتب القيمة ، كما تسلم وظائف مهمة ، كان منها وظيفة التدريس في مدارس بغداد ، والوعظ في الحضرة القادرية ، والاشراف على اوقاف مدرسة مرجان ، وهي وظيفة لا توكل الا لكبار العلماء ، ووظيفة الافتاء في بغداد وهي ارفع المناصب الدينية ، وكان ذلك كله ايام الوالي علي رضا باشا ببغداد (١٨٣١ ـ ١٨٤١م) ، وعندما جاء بعده الوالي محمد نجيب باشا ، اوغر بعض الوشاة صدره على ابي الثناء ، وسعوا بالزور عليه حقداً وحسداً ، وكان هذا منحرفاً عن ابي الثناء ، فيحمد الى الفصائه من الافتاء ببغداد وتجريده من اوقاف مرجان وقطع راتبه وفصله من التدريس وعزله عن مناصبه عملاً بمشورة بطانته السيئة ، وبذلك ساءت حال ابي

الثناء سوءا شديداً وبلغ به الضر كل مبلغ ، وشعر بحيف مرير من جراء الظلم الذي وقع عليه ، حتى ضاقت به السبل ، واضرت به الحال ، ولم يعد لديه ما يديم الرمق ، حتى اضطره الى بيع اثاث بيته وكتبه وعاش بثمنها فترة من الزمن ، حتى وصف هو ما آل اليه حاله من ضيق ذات يده بقوله : وحتى كدت آكل الحصير واشرب عليه مداد التفسير[١٠] ، فرغب ان يعرض حاله على اولي الامر في الاستانة ، حين يقول (وقلت لنفسي لابد من السفر . . . لاعرض حالي وما انا فيه من البلية على مراحم الدولة العلية)[١١] .

وبعد تبيان سبب الرحلة ودوافعها ، وصف بعدها موقف وداع الاهل والمعارف ، وساعة الفراق المريرة (غرائب الاغتراب ٤٧ ـ ٤٨) ، ثم وصف طريقه من بغداد الى الموصل ، ولابد ان نقف معه وقفة قصيرة في وصفه لها ، وجمال طبيعتها ونبل اهلها ، وفضل علمائها . والظاهر انه وصل اليها في الربيع فقد وصفها هذا الوصف البديع حين يقول :

«وهي مدينة عذبة الماء ، طيبة التربة والهواء . طعامها هنيء ، وشرابها مريء ، واسعة البلاد وسرتها ، ووجهها الصبيح وغرتها . تلد الربيع في السنة مرتين ، فهي بين البلاد ام الربيعين . . . وهي كالعرائس في حليها وزخارفها ، والقيان في وشيها ومطارفها . . ولا عيب فيها سوى انها ايام الربيع تسرق العمائم الخضر من السادة فتنشرها على سطوح دورها :

كـأن نـسـيـم الـريـح في جـنـبـاتـهـا
نـسـيـم حـبـيـب او لـقـاء مـؤمـل

ولعمري ان من اختبر وامتحن ، حكم بان كل روضة بالنسبة الى رياضها خضراء الدمن ، وانها تنبت العلماء المحققين كما تنبت الاقحوان والنسرين ، وتخرج الاخيار كما تخرج الازهار . . . » (غرائب الاغتراب ص٦٥) . وغيرها العشرات من الصور ، مما اشتملت عليه هذه الرحلة ، مما يدل على سعة خيال الرجل وخصب قريحته ، وقدرته على سياكة اللغة وصياغة العبارة وانتقاء الالفاظ .

ويعد الموصل يدخل الاراضي التركية فيصف مدنها مدينة مدينة ومواقعها موقعاً موقعاً ، منها وصفه لـ (لجزيرة ابن عمر ، وارضروم ، وسيواس وتوقات وسامسون) وغيرها حتى يصل الى الاستانة باسلوب طريف دخله التلوين وتفننت به يد التطريز والتنميق ، وحفل بالطباق والمحسنات . لعل من اطرفها وصفه للبحر الاسود حين قطعه في باخرة بحرت به عباب اليم في طريقها الى القسطنطينية وما لاقاه من اهوال البحر ، ومخاطر المراكب فيه ، منها هذه الصورة الطريفة التي استعمل فيها الالوان للتعبير عما في نفسه من مشاعر متضاربة :

(ثم ركبنا البحر الاسود لطلب العيش الاخضر واذاقة العدو الاصفر طعم الموت الاحمر) (غرائب الاغتراب ١٠٥) .

الا ان اكثر ما يعّد مركز ثقل في رحلة ابي الثناء هذه ، هو وصفه للقسطنطينية ـ عاصمة الدولة العثمانية ـ وصفاً مسهباً دقيقاً مفصلاً ، دل على انبهار بها وعجب بكل مناحيها ، فهو لم يترك جانباً منها الا ذكره ، ولا ركنا الا مّر به ، ولا جماعة او فئة من الناس الا اسهب في تفصيل القول فيها ، كما اتى على ذكر المعالم ووسائط النقل ، والابنية والاسواق ، كما وصف نساءها ورجالها ، ومدارسها ومساجدها ، ونكايا الدراويش فيها ، بل وصف حتى الخانات والنوادي والمقاهي وروادها فيها . كما وصف الشطار والافاقين واهل الفتونة فيها ، كما وصف اصحاب الطرق الصوفية مثلما وصف رجال الحكم والسياسة والموظفين ، ووصف علماءها ومدرسيها وطلاب العلم فيها مثلما وصف التجار والباعة واهل الحرف ، كل هذا بوصف دقيق مباشر يكاد ينطبق على الواقع الذي شاهده او نُقل اليه من بعض معارفه انطباقاً تاماً .

وقد لايتسع المجال هنا لآتي على الجوانب الكثيرة التي تناولها وصف ابي الثناء من معالم الاستانة ، مما يزخر بالمتعة ويجدر بالقراءة ، والذي يمكن ان يتحقق بالرجوع الى كتابه المذكور (غرائب الاغتراب ٦٦ ـ ١٩١) ليطلع على ما حواه هذا السفر النفيس من غرائب الترحال وعجائب السفر . ولكننا هنا نثبت جانباً من وصفه للاستانة ، مما يعطي فكرة عن صفاتها ، وعن اسلوب الكاتب فيها وعن معالم هذه المدينة الواسعة الممتدة بين

اليابسة والبحار التي شعر ابو الثناء ازاءها بالذهول والانبهار مقارنة ببغداد في منتصف القرن التاسع عشر التي ذكر المؤرخون عنها انها كانت (مدينة كابية قليلة العمران والبناء) ، قال ابو الثناء يصف القسطنطينية وصفه المشهور الذي قرأناه في كتب الادب المدرسي ، حين تأسره فيها نشوة الجمال ، ويسرح فيها مع الخيال :

«بلدة مونقة الارجاء ، رائقة الانحاء ، ذات قصور تضيق عن تصورها سعة الاذهان . وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان ، وربة رياض اريضة واهوية صحيحة مريضة . قد تغنت اطيارها ، فتمايلت طرباً اشجارها . وبكت امطارها ، فتضاحكت ازهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصّح مزاج اقليمها .. فلما رويت من الصهباء اشجارها ، ونّحها من النسمات المسكية خمارها ، فتدانت ولا تداني المحبين وتعانقت ولا تعانق العاشقين :

وكأن النرجس الغضّ بها
اعين المين وما فيهنّ غمّضْ»

ثم يسهب ابو الثناء في وصف اهل القسطنطينية وعاداتهم واشكالهم ،

ثم يرجع الى وصف البحر الذي تقع عليه المدينة ،والمراكب العائمة فيه ، فيصور ثغر البسفور وصفحة الدردنيل ، ثم طرق المواصلات ، والقصور ، ومواد البناء ، وقال ان اكثرها مبني من الخشب الذي يسبب في كثرة الحرائق عندما تهف وتتآكل وتعبث به الدودة ، وهكذا يسير مع معالمها ، حتى يصل الى نسائها فيصفهن بدقة وتعجب وانبهار مما يُعَد غريباً على ابي الثناء ، لاننا لا نتوقع من رجل له مثل علمه وفضله ، وصلاحه وتأثمه ، ان يراقب النساء وعاداتهن ، ويدقق النظر في اشكالهن وازيائهن ، ويتتبع سيرهن وسلوكهن ، ولكننا سبق ان ذكرنا : ان الانسان ذو فضول . ومفتون في التعرف على المجهول ، ويتطلع للعجيب والغريب من العادات والاشكال . وان نساء الاستانة في ذلك الوقت شيء عجيب بالنسبة الى نساء بغداد . فنساء عاصمة الدولة ، الكبيرة الحاكمة القريبة من بلاد اوربا بثوراتها الصناعية والسياسية والاجتماعية والحضارية . وقد اخذن بنصيبهن من العلم والحضارة . من غير نساء بغداد، المدينة المنكوبة بحكم الاجنبي .

لذلك جاء وصف ابي الثناء لنساء الاستانة بهذا الشكل الذي يحمل طابع التعجب والاستغراب وهو يرى اكثرهن سافرات ، عاريات الوجوه والاكتاف ، يستطيع ان يراهن مباشرة من غير حجب ولا استار :

(وفيها من النسوان ما يخّيل اليك انهن من حور الجنان . . . وفيهن من عادات نساء الاعراب ، انهن يبرزن الى الازقة من غير نقاب ، الا انهن الطف من شمائلهن ، وادعى بالصبوة بهن من تمايلهن ، فكأنهن نسيم همّ ان يتجسد . . . وربما يقول ظمآن النظر اذا اتى منهل مياه خدودهن وورد ، الله اكبر كيف نسج الريح على الماء زرد ، وربما يُنشد اذا ذاق نظره خمر خدها المتورد :

(رقّ الزجاج ورقت الخمر
فتشاكلا وتشابه الامر)

(فكأنما خمر ولا قدح
وكأنما قدح ولا خمر)

ومعظمهن حرائر ، وان لم يحتجبن عن النواظر . . . ولله تعالى درّ من قال في حقهّن :

(هن الحرائر لا ربات اخمرة
سود المحاجر لايقرأن بالسور)"[1]

× × ×

ب ـ رحلات مطلع القرن العشرين :

ـ رحلة الشيخ محمد رضا الشبيبي الى الحجاز وبادية السماوة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ : ـ

المشهور ان الشيخ محمد رضا الشبيب (١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م) قد

كُلف بمهمة وطنية وقومية معروفة ، للقيام برحلة الى الحجاز عام ١٩١٩ لمقابلة الشريف حسين بن علي منتدباً من العراقيين[١٣] فقام برحلته هذه وكانت على اربع مراحل . الاولى كانت من النجف الى البصرة . والثانية من البصرة الى حائل في نجد ثم الى المدينة المنورة في الحجاز قاطعاً بادية البصرة من الشرق الى الغرب ، وماراً ببقاع ووديان وسهول وجبال وقبائل عدة استغرقت سبعة وعشرين يوماً سماها (سبعاً وعشرين مرحلة) باعتبار ان المرحلة هي مسيرة اليوم الواحد لعدم وجود وحدة قياسية للمسافة عندهم حينذاك ، ثم المرحلة الثالثة : وهي المرحلة الاولى من (رحلة العودة) من الحجاز الى دمشق حيث مكث في الشام وفي بعض مدنها ما قرب من عام[١٤] ، ثم المرحلة الرابعة ، وهي المرحلة الثانية من رحلة العودة من الشام الى العراق قاطعا بادية الشام او بادية السماوة من الغرب الى الشرق . وان هذا الجزء من الرحلة هو المرحلة الوحيدة التي سجلها الشبيبي بدقة واصدرها بكتاب مستقل سنة ١٩٦٥ تحت عنوان (رحلة في بادية السماوة) الذي طبع بمطبعة المجمع العلمي العراقي بعد ان كانت مجلة المجمع العلمي العراقي قد نشرت الرحلة تحت العنوان المذكور في المجلد الحادي عشر من عام ١٩٦٤ .

اما (رحلة الذهاب) الى الحجاز التي تبدأ من النجف او من البصرة ، فلم يسجلها الشبيبي ، او بالاحرى لم تصدر بمقال او مذكرات او كتاب مطبوع ، ولذلك فاننا لا نعرف عن تفاصيلها الا الشيء القليل مما ذكره عنها في مقدمة كتاب رحلة العودة المذكورة من اشارات سريعة واخبار مختصرة التي سماها (الرحلة النجدية او الرحلة الحجازية) ، ويبدو ان احداث الرحلة الرابعة هي التي كانت الصق في باله عندما سجل احداثها ، لانه كان قد انتهى توا منها ، ومازلت وقائعها ومناظرها شاخصة في ذهنه ، لانه ـ كما يتأكد من قراءة هذه المرحلة من الرحلة ـ انه كتبها بعد رجوعه الى وطنه واستقراره في داره ، بينما كانت احداث المراحل السابقة قد مضى عليها اكثر من عام ، لذلك يبدو ان الرجل حرص على تسجيل القريب الحاضر منها .

اما ما سجله في احداث المرحلة الرابعة (رحلة في بادية السماوة) ، فيقع في قسمين متميزين ، الاول عبارة عن مقدمة طويلة عن السفر وفوائده والرحلات ومتعتها ، واشتهار النجفيين بحب السفر وحب التنقل وبُعد الهمة وشدة الرغبة في الترحال والاغتراب ، ثم تحدث فيها عن البادية وطبيعتها ، مقارناً بين معالم بادية الشام (بادية السماوة) وبادية نجد ، وما وقع في منطقته السماوة وباديتها من احداث ومعارك عبر التاريخ ، وذكر من قطعها من الرواد والقواد التاريخيين امثال القائد خالد بن الوليد الذي قطع هذه البادية الى الشام في رحلته القيادية التاريخية المشهورة ، ثم رحلة ابي الطيب المتنبي بعده عندما قطعها متجهاً الى مصر . وغيرهم من المشهورين . . . الى آخره .

وفي القسم الثاني يبدأ بوصف هذا الجزء من الرحلة ، وقد جعلها على مراحل وقال انه قطعها في (ست وعشرين مرحلة) لان الطريق استغرق ستة وعشرين يوماً تبدأ في السابع والعشرين من تشرين الاول من سنة ١٩٢٠ وتنتهي في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها وهي مدة يكفي اقل منها للسفر الى اليابان بالباخرة في هذه الايام .

لقد ذكرت ان الشبيبي كتب هذا الجزء من الرحلة بعد عودته واستقراره ، وليس في اثنائها ، ولذلك جاءت عباراتها مرتبة ، وافكارها منسقة وذكرياته فيها طريفة متناغمة . وبسبب من كون الشبيبي واحداً من رجال اللغة والتاريخ فان اسلوب السرد في الرحلة اتسم بطابعه ، فهو كثيراً ما يعلق على بعض ما يثبته من اسماء او افعال خلال الحديث ، وما اذا كانت هذه الكلمة فصيحة صحيحة مستعملة ، ويعلق على اسماء الاماكن والبلدان والمواقع واسماء القبائل وانسابهم ، وماذا قيل عن اصل تلك الكلمة في لسان العرب او في القاموس المحيط وماذا قال الفيروز ابادي فيها ، وهل هي من الفاظ التراث ام من كلام الحضر ام من الفاظ الريف ام كلام البادية ، وكثيراً ما كان يراجع المصادر ويتأكد من المعجمات او كتب التاريخ ، وغير ذلك مما نجده من طوابع لغوية او تاريخية .

وهذا مقطع من رحلته الذي وصف به نساء البادية اللواتي

شاهدهن ابان الرحلة ، وما تميزت به من جرأة في الرأي ، وخفة في الحركة ورشاقة في الشكل : «بقينا في نظر فريق من هؤلاء البدو الخلّص مضافا الى من لقيناهم في البادية من الاغراب لغزا غامضا . . . وملامح غير مألوفة لرفاقنا في الاشكال والالوان ، ولا يتمكن بعض القوم زرايتهم على ثقل خطانا وبطء حركتنا ومظاهر الترهل في ابداننا وطالما جوبه الحضر من اهل القافلة بهذه العبارة (ما اثقلكم على وجه الارض) وقد لاحظنا ان البدويات من نساء القوم اكثر رشاقة واخف حركة واعظم جَلَداً وصبرا من رجالنا المنغمسين في اسباب الحضارة ، ولا عجب فالشجرة البرية اصلب عوداً وابطأ خموداً . . .»[15] ، ثم يتحدث عن طريقة ابناء البادية في اكرام الضيف فيقول :

«دعينا الى طعام العشاء بعد المغرب ، وقد ارخى الليل سدوله . . . وغاب العرب المضيفون عنا ساعة واطفأوا الضياء ، كل ذلك حرصاً على حرية اضيافهم ساعة تناول الطعام . . . » ، ثم يذكر حادثة طريفة جرت لهم في احدى الليالي وهم في البادية فيقول : «وقد استحوذ علينا القلق ليلة الضويع ، ولم تغمض لنا عين الى الصباح ، وذلك لاشتباهنا بغارة شنها علينا جيش من البدو الغزاة ، ومن عادات القوافل التي تقطع البوادي اذا توقعت شراً او بوغتت بغزو ان تنتظم في شكل دائرة تامة تحيط بها احمال البضائع وبعدها الرواحل والجمال ، يكمن خلفها الرجال باسلحتهم كما يكمن الجنود في خندقهم متأهبين للطوارىء وهكذا فعلنا في تلك الليلة وكنا نطلق النار بكثرة على اشباح وهمية وما اكثر الاشباح في آفاق الصحراء ، ولما اصبح الصباح ظهر لنا اننا كنا نطلق النار على كلب ضل اهله وراح يتتبع آثار القافلة»[16] .

٢ ـ الرحلات الشعرية

ذكرنا : ان الرحلات الشعرية اكثر عدداً والطف صوراً ، واطرف خيالا وامتع قصصاً . وسنتحدث عن ثلاث رحلات من القرن التاسع عشر وهي رحلة عبد الجليل البصري من البصرة الى البحرين سنة ١٨٢٥م ، ورحلة حبيب بن طالب البغدادي من لبنان الى بغداد سنة ١٨٤٧م ، ورحلة الشيخ عبد المحسن الكاظمي من بغداد الى مصر سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٩م ، اما عن رحلات العراقيين في مطلع القرن العشرين فسنتحدث عن عدد منها لتتم الموازنة بين المرحلتين ، وما اتسمت به كل منهما من خصائص فنية .

آ ـ « رحلات القرن التاسع عشر »

ـ رحلة الشاعر عبد الجليل البصري الى البحرين سنة ١٨٢٥م[17]

من الرحلات (الشعرية) الممتعة التي سجلها الادب العراقي في القرن التاسع عشر رحلة الشاعر عبد الجليل البصري (١٧٧٥ ـ ١٨٥٣م) وهي (رحلة بحرية قام بها في الخليج العربي وجزر البحرين) مع لفيف من اصدقائه ، ثم العودة معاً الى البصرة ، سماها الشاعر (نزهة الجليس) واستغرقت اسبوعين كاملين ابتداءً من منتصف شهر رجب من عام ١٢٤١هـ (١٨٢٥م) حتى آخر يوم منه[18] . وهي قصيدة رجز طويلة بلغت (مائة وثمانية وثمانين) بيتاً ، وصف فيها باسهاب وتفصيل ممتعين مراحل الرحلة من ساعة قيامها من البصرة حتى وصوله الى اقصى مناطق البحرين ثم وصف معالم رحلة العودة الى البصرة . وتكمن اهمية هذه الرحلة في جانبها العلمي والتاريخي حيث ثبت المواقع وشخص الاماكن وعين الاتجاهات ووصف الموانىء وذكر العشائر القاطنة على جانبي شط العرب والخليج العربي وغيرها من الحوادث والمناظر والمفارقات ، فضلاً عما فيها من فن ممتع وادب طريف .

في بداية الرحلة حدد ساعة الحركة وزمانها ، وذكر واسطة النقل التي اعدوها للابحار ، والاسلحة التي حملوها للدفاع عن انفسهم عند الحاجة ، ثم مجموعة من كتب متنوعة في الفقه والتفسير والحديث والادب ، مما يشير الى ان الجماعة السائحة كانت تعرف ان الرحلة قد تطول . فلابد اذن من استغلال الوقت والافادة من الزمن فحملوا الاسفار للدراسة والمداولة وهذا يدل على انهم كانوا من اهل العلم وذوي الفضل والمعرفة .

قال محدداً ساعة الحركة وتاريخها :

صبح الخميس النصف من شهر رجب
في خامس الحوت وذا فصل يُحب
من سنة في ضبطها ارخّنا
(عفّى لنزهة قد خرجنا)
في رفقة غرّ الوجوه كُمّل
ما فيهم الا فصيح المقول

ثم يستمر في وصف رفاق السفر وما فيهم من لطف الاريحية وحسن المعشر في تسعة ابيات اخرى ، بعدها يتحول الى وصف الخدم الذين معهم وما كانوا عليه من صدق في الخدمة وامتثال للامر . قال في اولها عنهم :

غلماننا كل خفيف الروح لا
ينفك في بِشْر وطبع سَهْلا

ثم يصف السلاح الذي احتاطوا به للطوارىء :

سلاحنا الاسياف والبنادقُ
وبالرماية الجميع حاذقُ

ثم الكتب ، واسفار المعرفة ، وهي متنوعة من فقه وحديث وادب :

وقد صحبنا معنا اسفارا
نقطف من اسطارها ازهارا

اما موكب الرحلة فقد تألف من قاربين مصنوعين بدقة ومحفوفين بالعناية :

قد استطبنا قاربين حُفّا
بحسن تسيير الاله لطفا

ثم وَصَفَ شَطّ العرب والخليج العربي ، وينابيع المياه فيها ، وما سمق على جوانبها من باسقات النخيل واشجار الكروم وما اثمرته من كل لذيذ وشهي لمن يجتنيه :

ترى بها النخيل باسقاتِ
من كل نوع لذّ للجناةِ
فيها ينابيع مياهٍ قد جرتْ
في برها وبحرها تفجرتْ

حتى يصل الى مناطق البحرين وجزرها ، فيصفها منطقة وجزيرة جزيرة وصفاً دقيقاً مفصلاً مشتملاً على تثبيت المواقع وتحديد الاتجاهات وتسير الرياح وصعوبات الابحار واوقات الحركة ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من خضرة وماء ،واناس وحيوان ، ومبانٍ وقلاع ، ومعن ومزالق وامواج وعواصف ، كل ذلك في وصف نسخي فيه الكثير من دقة النقل ، وصدق التصوير ومطابقة المشاهدة مع تشويق في الحديث وحبكة في الاسلوب ووضوح في اللغة وطرافة في المعاني مما يمكن ان يعد وثيقة تاريخية ونادرة علمية وتحفة ادبية ، لولا قلة في الخيال واسهاب في السرد .

فبعد دخوله مياه البحرين ، يصف جزرها واجواءها ، فيقول في قسم منها :

وقد غنمنا نزهة الجزيرة
سرنا الى (جنّ) بحسن سيره
وقد وردنا منهلاً مصفىٰ
فيه مريئاً سكرياً اصفىٰ
ثم ارتحلنا الصبح للجنوبِ
فزاد فينا الريح بالهبوبِ

فاذا وصل الى بعض مواقعها ووقعت عيونه على بعض نسائها ، وما فيهن من حسن وصباحة وفتنة وملاحة يصفهن في ابيات عدة يقول في بدايتها :

دار لربات الجمال الخرّد
من كل هيفاء بقدّ امبد

وفي ابيات بعدها يصف مهارة الصيادين وقدرتهم الحاذقة على تعيين الصيد وتحديد حركته والظفر فيه . في ابيات عدة يقول في اولها :

سوى فريق حلّ منها ناحيهْ
وكلهم في الصيد هادٍ داهيهْ

ولا نستطيع هنا ان نتعرض لكل معالم الرحلة وملاحقة احداثها ، الا اننا نختتم حديثنا عنها بوصفه الدقيق والطريف (لقلعة) نزلوا بها في بعض مراحل السفر ، وما فيها من حسن الطراز وضخامة البناء ، وجمال المنظر ؛ وما حوته من اشجار عالية وثمار دانية وفاكهة متدلية مما يعكس عجبه بها وانبهاره

بفخامتها حين يقول في بعض ابياتها :

حتى نـزلنـا في فنـاء (القلعـة)
والنـخـل فـيـهـا قـد ابـان طـلـعـهْ
اشـجـارهـا تـنـوعـت ازهـارهـا
غـنّى عـلـى افـنـانها هـزارُهـا .
كـأنـمـا الاتـرجّ في الاوراق شَـبْ
في خـيـمـةٍ خَـضْـرا قـنـادبـلُ ذهـبْ
والمـاءُ جـارٍ قـد صـفـتْ جـداولـهُ
واسـتـعـذبـت لـوارد مـنـاهـلُهْ
مـنـظر هـذي القـلـعـةِ العـظـيـمـهْ
تـعـرفُ مـنـه انها قـديـمـهْ
صـخـورهـا منـحـوتـة مـربـعـهْ
عـظـيـمـة الـسـمـك بـطول وسـعـهْ
حـاط بـهـا سـوران ثـم الخـنـدقُ
يـعـجـب راءٍ عـرضـهُ والـعـمـقُ
قـصـورهـا نـاءتْ عن التـقـصـير
وقـد زهـتْ بـزخـرفِ الـتـعـمـير

وبعد ان تصل الرحلةُ الى نهايتها ، وتُحقِقَ غاياتها ، وتبلغ اقاصي البحرين ، يميلون للرجوع ، ويستعدون لرحلة الاياب فيصف هذا : الجزء من الرحلة مثلما وصف (رحلة الذهاب) ولكن مع بعض الاختصار لان اكثر المعالم كان قد ذكرها في المجيء ، فصار يقتصر على ذكر ما صادفهم فيها وما فاته من امور .. قال في بدايتها :

وبـعـد مـا مـلـنـا الى الـرجـوعِ
لـلاهـل قـبـل آخـر الاسـبـوع
هـب عـلـيـنـا عـاصـفُ الشـمـالِ
فـلـم نـجـدْ وجـهـاً لـلارتحـالِ

.....

ثـم تـوجـهـنـا الى الـبـلاد
بـخـيـر حـال مـقـتـضـى المـراد
في ضـحـوة الخـمـيس منتهى رجب
جـئـنـا الى المكـان اذ نـلـنـا الارب[1]

.....

رحلة الشاعر حبيب بن طالب البغدادي
من لبنان الى العراق سنة ١٨٤٧م

اما الرحلة الثانية التي قطع بها الشاعر حبيب بن طالب البغدادي[2] (المتوفى بعد سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) ماراً بمدن الشام ، فانها فاقت رحلة زميله البصري طول مدى ، وعدد ابيات وطرافة اسلوب وغرابة خيال وحسن تصوير ، وكثرة تفصيل ، في قصيدة رجز ايضاً بلغت (مائتين وستة وسبعين) بيتاً .

تبدأ الرحلة بما هو متعارف عليه من حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه الكريم وصحبه وآله الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام اجمعين) . وبعد اكثر من عشرة ابيات من الحمد والثناء ، يذكر ساعة الحركة ويحدد مكان الانطلاق :

فـحـيـن سـرنـا مـن بـلاد عـامـلهْ
بـحـمـدِ خـيـرِ مـنـعـمٍ والـشـكـر لـه
فـبـدء سـيـري كـان من (تبـنـين)
غـب وداع الـطـرف الامـين
وقـد نهضـنـا عـنـد ضـوء الـفجـر
نـفـري الـفـلا مـن مـهـمـة وقـفـر
حتى وردنـا (الـشـق) وهـو منـبـعُ
صـافٍ كعين الـديك صـرف يلمـع

ثم يأخذ بذكر المواقع والمدن ومعالم الطريق ووسائط النقل ومتاعب السفر ومفارقات الرحلة وعادات الناس ، ومشاهد الطبيعة ، كما يصف الابنية والقصور ، والجوامع والاديرة ، والقلاع والحصون ، والخانات والحمامات ، والبرك والينابيع ، والانهار والنواعير ، كما وصف وسائط النقل التي استخدموها ، وقال انها كانت (البغال) في المرحلة الاولى من الرحلة ، حتى ديار بكر في شمال العراق ، فتحولوا الى (الاكلاك) واستخدموا نهر دجلة في بقية الرحلة الى بغداد ، كما ذكر المدن التي مر بها ابتداءً من مدن جنوب لبنان : صور وصيدا ، ثم مدن الشام : دمشق

وحمص وحماه والمعرة وحلب وغيرها ، وانتهاء بمدن العراق : ديار بكر والجزيرة والموصل وتكريت وسامراء حتى بغداد ، كل ذلك بوصف تفصيلي ممتع لكنه لايبلغ حد الملل لما فيه من حسن التشويق وجمال السرد المنقول من الواقع وباسلوب التصوير المباشر ، مع الكثير من الخيال في احيان كثيرة .

وها نحن نسير مع بعض مراحل الرحلة ووصفه للطرق والمدن بهذا الاسلوب الطريف :

وبكّر الركب الى الشآم
ولا تسل عن ذلك المقام
حتى وردنا حارة الخراب
من الشآم مركز الانجاب
وقد بقينا في (دمشق) شهرا
مرادفاً لليلتين اخرى
وقد سرينا من (دمشق) عصرا
براة ذي الحجة ارخْ (يسرا)

اي عام ٢٦٣هـ ، ويقصد بعد الالف طبعاً .

وفي صباحِ الثالثِ الركبُ ارتحلْ
الى (حماةٍ) والعُصيرِ قد وصل

وحين يصل (حماة) يصف نواعيرها المشهورة في ابيات عدة طريفة منها قوله :

وللنواعير حنينٌ موجعُ
لكل قلب بالنوى مصدع
تدور سعيا وتئن كمذا
كأنها تطلب إلفاً فُقِدا

وهو تصوير جميل ، كما انه من المراتَ القليلة التي يوصف بها (الناعور) في الشعر العراقي في هذه المرحلة على الرغم من ان بيئة العراق حينذاك كانت بيئة زراعية كثيرة البساتين والنواعير .

ولا شك في اني لا استطيع ان اسير مع احداث هذه الرحلة الطويلة النَفَس ، الكثيرة الشعر ، او اتتبع في هذا البحث معالمها ، اذن لطال البحث ، او لاحتجتُ الى اكثر من مقال ، اذن لا نصاع للضرورة ، واقتصر على ثلاثة مواقف مهمة ، اولها : وقفة الشاعر في منطقة (سويرك) في الشام ، وثانيهما وثالثهما وصفه لمدينتي الجزيرة والموصل في العراق .

فبعد ان يقطع الشاعر البغدادي مرحلة طويلة من الرحلة ، ويمضّ به التعب ويبلغ منه الاعياء مبلغاً كبيراً حين يصل الى منطقة (سويرك) في الشام يبدأ بتصور امور وهمية ويتخيل اشياء غريبة حين ينقل : انه شاهد في هذه المنطقة ستة اجساد من آل الرسول (ﷺ) ملقاة على الارض من غير مواراة من زمن طويل ، من غير ان يمسها التلف ، وهي باقية هكذا منذ سنين يفوح منها اريج المسك ، وهم (شيخ ، وابناه ، وابنتاه ، وزوجه) .

لنستمع الى هذه الرواية الغريبة في هذا الجزء الحرج من رحلة البغدادي :

وفي (سويرك) شهدنا آيه
ثابتة بالنقل والروايه
ان بها من عصبة المختار
ستة اجسام بلا تواري
اجسامهم على مرور الحجج
باقية تذكو بطيب الارج
واحدهم شيخ كبير اشيب
يُدعى عليا وهو فيهم معطب
مبضع الصدر طعين الخاصرة
بادٍ لعيني ناظر وناظرة
وابنان في جنبيه وابنتان
وزوجة له على البيان
وهم على مرتفع كالمصطبة
اجسادهم مصفوفة مرتبه

اما وصفه لبلدة (الجزيرة) العراقية ، فيقول فيها هذا الكلام الطريف ، ويرسم لها هذه الصورة الظريفة :

حين وردنا بعدها (الجزيره)
وهي لعمري بلدة خطيره
وقد خلتْ من نظره ومن شجر
ومن قصور ترتقى ومن اثر

وما بها سوى المياه دائره
مثل غواة حول بنت حاسره
رخيصة الاسعار خذ ولا تسل
اللحم والسمن كثير والعسل

وعلى الرغم من ان هذا الوصف تقريري ، الا ان الخيال لدى الشاعر قد ادى دوراً موفقاً في البيت الثالث .

اما الموصل ، فيصورها هذا التصوير الممتع ، الذي يسهب في تبيان جهاتها ومحلاتها ، ومزارات الانبياء فيها ، وفضل الخيرين من اهلها ، حتى يصل الى هذا المقطع الطريف الجدير بالقراءة :

وهي لعمري بلدة عظيمه
احوالها باللطف منتقيمه
فماؤها دجلةُ ، والهواءُ
فيه لكل علة شفاء
زاهية الجنات بالاشجار
لكثرها رخيصة الاسعار
وخبزها مثل صدور الغيد
مهفهفات كاعبات رود
اشهى الى العين من الرقاد
من ناعس باليغ في الوساد
كذلك (السفيس) كالزنود
منهنّ و (التفاح) كالخدود
ولا اطيل الشرح في حسن الثمر
فمن جنان الخلد قد ذاع الخبر
.....[1]

(رحلة الشيخ عبد المحسن الكاظمي الى مصر سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٩م)

اما الرحلة الشعرية (الثالثة) في القرن التاسع عشر ، فقد كانت رحلة الشاعر عبد المحسن الكاظمي (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) الشهيرة من بغداد الى البصرة فايران فالهند ثم الى مصر بين عامي (١٨٩٧ ـ ١٨٩٩م) وعلى ان رحلة الكاظمي قد ذاعت في الناس اكثر من رحلة زميليه البصري والبغدادي . بل لعل الكثير منهم ، وبينهم بعض هواة الادب من لم يسمع بهما او يعرف عنهما شيئاً ، لكنها مع ذلك اقل اهمية من رحلة زميليه من الناحية الفنية واقل وضوحاً ، وابياناً وتفصيلا وتشويقاً وحبكة ، وابهت صورا ، على الرغم مما يتمتع به الكاظمي من شاعرية متدفقة لايملكها زميلاه ، كما انه ليس في الرحلة نفسها ، ومناظرها ومناعبها ومفارقاتها ما وجدناه في الرحلتين السابقتين من افاضة في السرد ودقة في الوصف وتتبع للمشاهد .

ولعل سبب عدم لحاق رحلة الكاظمي فنيا برحلة زميليه ، ان الرجل في رحلته كان يحمل همومه بين جنبيه في رحلة الهجرة هذه ، وفي صدره مضاضة الفراق الاجباري عن الوطن ، وفي قلبه سعير الشوق الى الاهل اكثر مما يحمل من شعور برحلة ممتعة يقضي معها اياماً هانئة ، ويشاهد فيها مناظر خلّابة ، ثم يعود بعدها الى وطنه آمنا مطمئناً مثلما كان عليه حال زميليه ، لذلك فان قصائد الكاظمي في رحلاته ليست مستقلة الغرض ، انما جاءت في اغراض متعددة اكثرها في وصف مصر واهلها وفرحه بالوصول الى مصر ، ثم في مدح بعض معارفه او تبيان ما احاطه بعض من التقى بهم خلال الرحلة ، واشادة بكرمهم ، ووصف اشواقه للاهل وللوطن .

وعلى الرغم من ان رحلة الكاظمي كانت اطول زمناً وابعد مسافة واشد معاناة واكثر خطراً ، بل هي مجموعة رحلات متصلة في رحلة طويلة واحدة . فقد رحل الكاظمي من الكاظمية الى البصرة في المرحلة الاولى . . . ثم غادرها الى الهند . . . ومن الهند ركب الباخرة مرة اخرى وذهب الى مصر . . . وكان وصوله الى مصر سنة ١٨٩٩م»[2] ليقيم فيها بقية حياته حتى وفاته سنة ١٩٣٥ فان الرجل لم يخلف لنا في وصف رحلته الطويلة هذه غير ثلاث قصائد[3] اكثرها في وصف عواطفه ومشاعره واشواقه للاهل وللوطن . والاشادة بمصر واهلها عند وصوله اليها ، او ببعض معارفه ممن اقام عندهم خلال رحلته ، وليس فيها من وصف الرحلة ومشاهدها غير لقطات سريعة ، الا انها جميلة وتشير الى مراحل حساسة مهمة من الرحلة .

فمن ذلك ما جاء في قصيدته (العينية) : نعم اهل مصر

انتم خير امة . . . في وصف المرحلة الاولى من سفرته على الابل من بغداد الى البصرة حين صورها تصويراً موفقاً باسلوبه البدوي الجزل الذي عُرف به الكاظمي ، وواصفا شدة المعاناة وصعوبة الرحلة :

سرينا نجوب البيد في غلس الدجى
وسارت مطايانا تخبّ وتوضع
تعوج بنا شرقاً وغرباً كأنها
تقيس بمسراها القفار وتذرع
كأنا وقد مالت بنا سنة الكرى
سجود على اكوارهن وركّع

اما في المرحلة الثانية من الرحلة ، فيصف ركوبه البحر في باخرة ، شقت به عباب اليم ، ثم وصوله الى السويس في رحلة محفوفة بالخطر ، الا انه يصف شدة سعادته حين علم انه وصل الى مصر ، صاغها بذات الاسلوب البدوي المسبوك ، والصور الطريفة ، ولكن على اختصار وسرعة شديدتين بحيث يفقد القارىء متعة التأمل والسير معه في عرض البحر وطوله ، وتأمل مناظره ، ومشاطرته اهواله ومخاطره . فما ان ينزل برحله الى البحر حتى يصل بنا الى السويس وينزل مصر ، فيشعر القارىء بانقطاع ذهني مرعب وصحوة مفاجئة من حلم لذيذ ، ويبدو ان فرحته العارمة بالوصول الى منيته ـ مصر ـ بعد طول مشقة وترقب ولهفة هو الذي جعله يقطع علينا وعلى نفسه فرصة تأمل البحر ، واسترجاع اهواله ومناظره حين يقول :

ولما نقلنا للبواخر رحلنا
وعفنا المطايا وهي حسرى وظُلّعُ
هجمنا على جيش من الموج ضارب
بزخّاره نحو السما يترفع
يطالعنا من كل فج كأنه
جبال شروى اصبحت تتقلع
ولما تبينت السويس وسار بي
الى النيل سيأر من البرق اسرع
هرعت اليها عاطفاً من حشاشتي
وقلت لصحبي هذه مصر فاهرعوا[٢]

ونلاحظ ان آثار الاسلوب البدوي التقليدي القديم ما يزال يلاحق بيان الكاظمي ولغته ، على الرغم من انه يصف موضوعاً حضارياً حديثاً متمثلاً بالباخرة وفخامة صنعها ، ولكنه بقي يستخدم عبارات الاقدمين وتشبيهاتهم في السفر ، المتمثلة بـ(المطايا ، وحسرى ، وظلّع) وغيرها . ثم تشبيه الموج ، ثم المطايا ومراكب السفر النوق بارتفاعها وضخامتها بـ(جبال شروى) ثم (البرق) الذي كثيراً ما يلازم السائرين في الصحراء .

اما قصيدة الكاظمي الثانية في الرحلة (دعوني اجوب هذي الديامم) فلا توضح خط سيره في الرحلة ، او تحدد الطريق او ترسم المعالم او تصف المواقع او تذكر المواقف ، لكنها انصبت على ذكر وسائط السفر التي استخدمها في رحلته من بغداد حتى القاهرة ، من (جمال وخيل) في المرحلة الاولى من بغداد الى البصرة ، ثم (الباخرة) في رحلته البحرية الى مصر في المرحلة الثانية ، ثم وصف (القطار) في المرحلة الثالثة حين نزل على ارض مصر واستقله من السويس الى القاهرة . وفي الحق انه يفصل في ذكره هذه الوسائط ويبدع في وصفها . لكنه يرسم لها ذات الصور التراثية القديمة التي رسمت للناقة والفرس ، بل حتى في وصفه للباخرة والقطار يشعرك انه يقطع بك الفيافي والقفار ، لا المزارع والبحار ، او كأنه يسير بك في صحراء جرداء لا خضرة فيها ولا ماء في المرحلة الاولى ، مستخدما الفاظ البادية وصورها المألوفة . ولاسيّما عندما يصف الناقة التي اقلته في رحلته ، فهو يحشد لوصفها كل اسماء الناقة المعروفة في القاموس العربي ، فهي :

(خوص ، زيّافة ، شملالة ، مرقال ، داعر ، كوماء ، هوجاء ، سعوم . . . . الى آخره) ، اما القطار فتظهر لنا فخامته وانبهار الشاعر بهيأته وهيبته ولكنه يبقى مشدودا الى صورة موكب (القطار الصحراوي) المتمثل بمجموعة الجمال السائرة في البادية . كل ذلك بلغة فخمة ، توجهها ثقافة قديمة قويمة ، واسلوب متماسك يوجه يده وقلمه وفكره ، لكنها ممتعة جزلة تشعرك بهيبة اللغة وعنفوانها . وبودي لو ابسط اجزاء من وصف وسائط النقل هذه ليطلع القارىء على صورها ، وعلى لغتها

واسلوب وصفها :

قال في قسم من الرحلة يصف حنينه الى الاهل والوطن :

ايـا الـقـلب كـم تحَـن الى الـكـر
خ وتهـفـو لـسـاكـني الـزوراء
وشـجـيـاً اراك في كـل حـين
لـصـحـاب مـن الجـوى اخـلـيـاء
اخـذوا النـوم من جـفـوني وبـاتـوا
في جـفـونٍ ريّـاً مـن الاغـفـاء

اما الابل التي يمتطي ظهرها فيقول فيها :

ودعـوني اجـوب هـذه الـديـامـي
م واسـري في هـذه الاجـواء
فـوق خـوص تـرغـو فتنتظم البـي
د جـمـيـعـاً في سـلك ذاك الـرغـاء
كـل زيّـافـة تـزف كـما الار
واح مـن نـسـل داعـر كـوماء
وسـمـوم مـن آل شـدقـم مـرقـا
ل واخـرى شـمـلالـة هـوجـاء
عـائـمـات كـما الـسـفـائن في بـحـ
ر سـراب الـتـنـوفـة الـقـفـراء
تلطم الارض لـطـمـة الكـاعـبـات الـ
خـود خـد المـليـحـة الحـسـنـاء

اما (الخيل) التي ركبها ، فيقول فيها :

وعـلـى ضـمّـر اذا صـرّت الحـا
دي حـسـبـت الصـهـيـل رجـع الحـداء
يـتـسـابـقـن لـلـمـغـار لا يحـ
جـمـن في كـل غـارة شـعـواء
كـذئـاب الغضـا عـواسـل في الـقـا
ع خـماص الـبـطون والاحـشـاء
انـما الخـيـل كـالـرجـال فـهـذا
لـلـمـغـاني وذاك لـلـهـيـجـاء

اما (البواخر) فيصفها هذا الوصف الممتع حين يقول :

قـاطـعـات البـحـار طـولا وعـرضـا
بـين صـيـف يـقـودهـا وشـتـاء
فـكـانها في اخـريـات الـلـيـالي
اولـيـات الخـدور في الاحـيـاء
كـل قـارنـة تـوشـح في حـ
راة جـاديـة وفي صـفـراء
وكـان الـرايـات حـمـر جـمـال
لُحـنَ مـن فـوق قـبـة حـمـراء
او طـيـور حـمـر وخـضـر يـرفـرفـ
نَ عـلـى الـوكـر فـوق عـالي الـبـنـاء
ابـداً تـنـطح الـريـاح بـخـيـشـو
م وتـغـري بـه عـبـاب المـاء
ولهـا حـافـز يـقـوم جـنـبـيـ
هـا ، ويـنـزو في ضـلـعـهـا المـوجـاء
مـا اثّـر الـضـمـير مـنـهـا ومـا ابـ
ردَ ظـهـرانها مـن الارتـواء
يغمـر المـاء نـصـفـهـا الاسـفـل والـ
اعـلـى مجـال الارواح والانـداء
ومـتى تـلتـقي بـاخـرى تـقـلْ ثـهـ
لان اضـحـى مـعـانـقـا لحـراءِ

وحين ينزل الكاظمي البر المصري ويستقبل (القطار) فانه يرسم له هذه الصور الطريفة التي تدل على انبهاره بهذا المخترع الجديد عليه :

وبـاثـنـاء كـل ذي عـجـلات
دائـرات بـذلـك الاثـنـاء
مَـن يـسـاوي بـه المـراكـب في السـيـ
رِ ومـا كـل مـركـب بـسـواء
مـرعـد بـرق ، ولا رعـد في الـسـحـ
ب ، ولا بـارقٌ يـلوح لـرائـي
سـاحـبـاً خـلفـه قـصـورا كـما ذا
ك وراءه سـحـائـب الانـواء

من رأى قبلها المقاصير تسري
هوّماً في المفازة البهماء
فاذا جاز او دنا من ربوع
ناح نوح الحزينة الثكلاء
واذا همّ للرحيل دعا القو
م فكان الجميع طوع الدعاء
ومتى سار ينشر الظل في السه
ل ، ويطوي الحزوم طّي الرداء
تلكُ مَلك من الزنوج تردى
برداء الجلال والكبرياء
ملك قاهر له الرعد الغب
را وتهتز قبة الخضراء[٢٠]

وفي قصيدة الرحلة الثالثة (رحلة مصر) يجيد الكاظمي ايضاً ، ولكنه على طريقته ، وهو يحمل همومه ، ويذكر بلاده ، ويصارع اشواقه ، ثم في وصف بعض مراحل السفر ، وبعض مناظره ومراكبه التي يسميها (بنات الماء) ، لكنه يرسم لها صورا طريفة . والحق ان الرجل يبدع في هذه الاجزاء من مكونات الرحلة ، ولا سيما وصف الباخرة وصراعها مع امواج البحر المتلاطمة ، حين يقول في القسم الاول منها واصفا لوعته واشواقه بسبب البعد والغربة والفراق :

بعدتَ عن الديار وصرت تدعو
على البعد الديارَ ولا تُجيبُ
رحلتَ وانت للعلياء صادٍ
تحوم على الموارد او تلوب
وخلّفت المنازل آنساتٍ
سروب الغيد يتبعها سروب
تشقّ حشاك من كلفٍ عليها
وتأنفُ ان تشق لك الجيوب
وفي مصر اراك وانت لاهٍ
وقلبك في العراق جوى يذوب
فكم والى مَ تنحب ثم تكبى
ولا يجدي البكاءُ لا النحيب

اما في تصوير رحلته فيقول :

بنفسي ما بنفسك يوم شطت
(ابو شهر) وسرتُ ولا صحيب
اقمنا برهةً والفجرُ طفلٌ
بطلعته قرون الليل شيب
وسرنا والهمومُ بها انسياب
علينا والظلامُ له دبيب
وعجنا راكبين اليوم فُلكا
وهل اغفى الفوارس ذا الركوب
بواخر من بنات الماء شُمّاً
على هام السحاب لها سحوب
تحلق كالعقاب بنا وتهوي
هويّ الطود اوهته الخطوب
ولم يرع الحشا منا ومنها
صعود بالمواصف او صبوب
تكفّ الموج وهو بها محيط
نزاعَ النفس لاقتها شعوب
بلغتُ بها قرارة كل لجٍّ
بعيد القعر ، لؤلؤه رطيب
وارض جزتُها من بعد ارض
سباسبها المريعة والهبوب
اعوم بحارها طوراً ، وطوراً
اجوب من المواسي ما اجوب
.....
الى ان قادني املي لمصرٍ
قياد الجاعات وهنّ لوب
[٢١].....
× × ×

قلنا اننا ستحدث عن ثلاث رحلات شعرية من القرن التاسع عشر . ونعود الان فنتدرك ، ونقول : لنتحدث عن رحلة رابعة ، لها نكهة خاصة ، لانها كتبت بنمط آخر من انماط

الشعر ، كان قد شاع في تلك الحقبة واغرم به الناس ، ونظمه الكثير من الشعراء «وكان مستفاضاً بين ادباء العراق في القرن الماضي ونبغ فيه كثيرون فاجادوه كل الاجادة ، وكتبوه في مراسلاتهم ومحاوراتهم»[٣٧] . اعني به (شعر البند)[٣٨] ، فقد قام شاعر عراقي برحلة ممتعة على فرس له من الحلة الى بغداد ، فوصفها وصفاً دقيقاً طريفاً مفصلاً بقصيدة بند طويلة احتوت على وصف فرسه ، ثم وصف الطريق الذي سلكه ، والمنازل التي مرّ بها ، ثم وصف بغداد حين وصوله اليها ووصف مقامات الائمة فيها ، ثم ذكر العديد من الشخصيات والوجهاء الذين التقى بهم .

قلنا انه بدأ الرحلة بوصف (جواده) الذي سافر عليه ، وقد كان وصفاً ندر مثيله في وصف الخيل في الشعر العراقي في هذه الحقبة ، حين رسم له صوراً اخاذة جميلة يدل على معاناة حقيقية ، والفة مع الحيوان ، وقرب منه ، وان تلك الاوصاف وان كانت تقليدية ، الا انها ذات اطار ممتع من الخيال الطريف ، والمحتوى الجديد ، والقالب الشيّق ، والالفاظ السهلة ، والاسلوب الممتع من اساليب الشعر العربي ، وهو الشاعر (محمد بن الخلفة الحلي ـ المتوفى سنة ١٨٣١م) وهو صاحب البنود الكثيرة المشهورة[٣٩] ، ويبدو ان الرحلة قد تمت خلال العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، لانه ذكر فيه اسم الوالي (سعيد باشا) ابن الوزير سليمان باشا الاول ، وان سعيداً هذا كان قد ولي بغداد بين سنتي (١٨١٣ ـ ١٨١٦م) .

ان وصف ابن الخلفة في مطلع الرحلة لجواده يدل على بداية نشيطة ، وعزم مندفع للسفر ، وثقة كبيرة برفيق الطريق وقدرته على مواصلة الرحلة الطويلة المضنية الى نهايتها ، لذلك اطرى ذلك الجواد ، وفصّل في اجزائه ووقف عند ميزاته من قوة وسرعة وجمال ، ومن حسب واصالة . وهذا جزء من وصفه لجواده الاثير :

«ايا مرتقياً سرج جواد من جياد الخيل جمّاح . رباعياً من الضّمر في غرته . النجمُ اذا لاح ، طويل العنق والساق ، سريع الخطو سبّاق . قصير الاذن والظهر وسيع العين والجبهة والصدر ، فلا الريح يباريه اذا غار ، ولا السهم يجاريه اذا سار . ولا الطير يحاذيه وان طار . ولا يُسبق ان مر ، ولا يلحق ان فر . ولا يصعبه الحر ولا يتعبه الكر ، ولا يكلفه البرد ، ولا يبلغه الطرد ، من الجرد العتاق الشهب ان اقبل كالسيل . وان ادبر كالبرق اذا اومض في الليل» ثم يبدأ بوصف الرحلة ومنازلها وطريقها : «وسر يحفظك الحافظ من كيد ذوي الغدر . لئام القوم كم خانوا وكم ما بينهم ضاع دم هدر . واياك ومكر السيء الخُلق . فلا تصحب سوى السيف وكن فرداً وحيداً حذرا حتى يراك الناس كالطيف وعوّد نفسك الغربة واقطع مهمة البيد . . . وجرّد صارم العزم من الحزم . على غارب مهرّي لقد فصله الصانع في احسن تفصيل . . . فحركّه من الجسر[٤٠] ، لكي يخترق الارض كما النسر . وان جئت الى (النيل) وجاوزت (المحاويل) . فلا تأو الى خان . ولا ترفق بمن خان . سوى خان ابن نجار . شريف تاجر اشرف تجار . سقى الله على تربته مزنة غفران . من الرحمة مالم يسقها من قبل انسان واعلا قصره في جنة الخلد بفضل منه مادام واحسان . فبت فيه ولا تبرح حتى مطلع الشمس . ودع بالك لاتذكر ماصابك بالامس . وقم واسرع بمسراك ولا تمش على مهل . ليطوى لك بالمسرى جميع الوعر والسهل . وان جئت الى (البير)[٤١] تجنبها فما فيها اهل تدبير . نعم في (خان زاد) استطعم الزاد . هنيئاً واصطبح واغبق به طرفك مازاد ، ضحى ثم اشرب القهوة من كف سخّي ذكره شاع . فنوع كلما تعطيه يهتز بشكرٍ لك ما فيه عطاء ابداً ضاع فردّعه ودعَ عن نفسك البخل . ولا تصغ لذي عذل . فذاك الناقص الرذل (وخان الكهبة) المشهور ان وافيته لا تتخذ فيه . نزولا ان قرب البلد الطيب مخفيه . ومل عنه يساراً تنظر اليسر بعينيك عيانا . وترى يرحل عن ساحتك العسر بيانا ، وسيهديك سنا النور الالهي كمشكاة وفيها ضوء مصباح . بدا وسط زجاج فتظن الكوكب الدري قد اشرق ياصاح ، نعم ذاك شعاع القمرين النيرين . . . السيدين السندين الكاظمين . . . فبهم يا رسول الخير تلك الحضرة السامية الفائقة الصنع . وهنيت لك البشرى اذا ما نظرت عيناك فيها غاية المقصد والمطلب والنفع . . . وانثني نحو ربيع ومحل عامر عال رفيع . . . ذلك

القصر الذي كل خطيب فطن يقصر عن وصف معانيه . . . تامل . تلك الدار شادها المعروف مأوى لجميع العالمينا . . . دار مولانا طليق الوجه في البذل . . . ابي يوسف محمود السجايا صاحب الفضل على الفضل[٣٢] . . . وعرّج يا اخا السير الى الزوراء دار الاولياء الخلفاء المحبوبة الاقليم بغداد . بلاد هي تخت الملك والعلياء ما شام ومصر حسرة الشاهات[٣٣] لم يحص مزايا حسنها المنشي بتعداد . وقف وقفة مبهوت على دجلة وانظر فيه خضراء قد حل بها النعمان[٣٤] ذو القدر . وسلم باحتشام ذا عظيم الشان من عظمه الرحمن في العلم له الصدر . رئيس الفقهاء العلماء الصلحاء الفاضل الكامل والعالم والعامل جهراً اوضح الدين . . . ولا تغفل اذا قابلت قبر الشيخ معروف . من التسليم يا هذا عليه فعسى كل بلاء عنك مصروف . . . فان جئت الى سوق الكمالات ، باهليه المكنى هو في (السوق الجديد) الشاهق المرشد من دون دلالات[٣٥] حقيق ذاك ان يوصف في سوق عكاظ . لما حاز من كل فتى امضى من السيف اديب بارع للشعر نقّاد . من كل صفي مرتضى القول ذي فهم ذكي اصمعي النطق في الانشاد والانشاء وقاد . . . .»[٣٦] .

ب ـ رحلات مطلع القرن العشرين

هذه بعض رحلات العراقين المسجلة (شعراً) في القرن التاسع عشر الى خارج العراق ، وهناك رحلات كثيرة غيرها فيه الى خارج العراق ، وفي داخله ، لانستطيع ان نذكرها كلها ، وهي محفوظة في كتب التاريخ والادب التي عنيت بادب هذه المرحلة[٣٧] .

اما رحلات العراقيين (الشعرية) في مطلع القرن العشرين ، فهي بطبيعة الحال اكثر من رحلاتهم في القرن التاسع عشر . فقد صار السفر ايسر ، ووسائل النقل اكثر ، ومخاطرة اقل ، ووسائط المواصلات اسرع وافضل . ومن يتتبعها يجد الكثير منها ، مما سجلته كتب الادب والتاريخ ، لذلك فنحن مضطرون هنا الى الاجتزاء ، واعطاء امثلة منها ، وذكر بعضها للموازنة . على اننا نود ان نبسط مقدماً بعض الفروق الفنية الاساسية بين ما سُجل من رحلات القرن التاسع عشر ورحلات مطلع القرن العشرين ، ثم نذكر الامثلة ، فمن اهم تلك الفروق او السمات الفنية بينها ، ان رحلات (القرن التاسع عشر) قد اتسمت بالطول المفرط (شعراً ونثراً) ثم بتضخيم الاحداث ، والتأكيد على الغريب وتبيان الاهوال ، واستعمال المحسنات واعتماد الاسلوب المباشر في السرد ، والنقل المادي الواقعي لوقائع الرحلة والوصف والدقة في النقل ، بينما جاءت رحلات مطلع القرن العشرين في قصائد قصيرة او صفحات قليلة . ويبدو ان سبب ذلك يرجع الى شدة المعاناة ، وطول مدة السفر ، وصعوبة الطرق ، وكثرة الفراغ لدى شعراء القرن التاسع عشر لكن رحلة مهمة قام بها شاعر عراقي في مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م رحل من النجف الى البصرة وسجلها شعرا اتبع فيها نهج شعراء القرن التاسع عشر تماماً من حيث الاطالة (حيث وقعت في (مائة وسبعة واربعين) بيتاً ، والاسهاب في التفاصيل ، وكثرة المبالغة والاهتمام بالجزئيات ، والتدقيق في الاحداث ، ورصد الاماكن ووصف المواقع والمدن والناس واشكالهم وعاداتهم ، وبيان وسائط السفر وحتى في المقدمة التقليدية بافتتاح قصيدة الرحلة بحمد الله وشكره والصلاة على نبيه الامين (ﷺ) وصحبه وآله الطاهرين ، وكذا في استخدام (الرجز) اسلوباً في الوصف تماماً كما فعل شعراء القرن التاسع عشر ، تلك هي رحلة الشاعر النجفي (محسن الجواهري ١٢٩٥ ـ ١٣٥٥هـ) والتي مطلعها :

الحمدُ لله الذي اولى النعم
واخرج الاشياء من كنز العدم

لذلك يمكن عدها ضمن دائرة رحلاته لانها اتصفت بصفاتها وان كان زمنها قد تأخر قليلاً عنه ، وهي طويلة يمكن مراجعتها في مصادرها[٣٨] .

ومن شعراء مطلع القرن العشرين الذين نظموا في الرحلة (الشعرية) الشاعر (محمد رضا الشبيبي) حين وصف لنا رحلة قام بها عام ١٩١٤م عندما وكان في بعثة عسكرية على حدود العراق

الشرقية[٣] متجها الى حلوان فيفيض بوصف الاجواء التي اجتازتها البعثة ، والمصاعب التي تعرضت لها والطرق التي سلكتها من شعاب وكثبان ، ثم من ريح غربية شديدة باردة كانت تضربهم ، كما وصف الجبال التي اجتازوها ، وقال انها مكسّوة بالثلج لشدة ارتفاعها ، وكان قسم منها ذا نبت ، وثالث عريان من الثلج والنبات ، حتى بدت تلك الرواسي في ارتفاعها وتشكيلتها كأنها مدافن ضمت اجداث القرون الغابرة ، وهو خيال طريف وتصوير موفق لهيأة تلك الجبال وهي تلفّ الازمنة والقرون ، وهي ما تزال شاخصة في مكانها لا تتحرك رغم حركة العصور ، مستوحياً ذلك من مدافن مدينته في النجف ورهبتها وقدمها حين يقول :

ولما اجزناها الى الشرق اشرقت
لا عيننا بعد العراقين حلوانُ
نجافت عن السهل السوي واصبحت
تجشمها المسرى شعاب وكثبان
ومّثلت لنا غربية فتأرجّت
من البيد اذ هبت جيوب واردان
وهل مسعفي بالقرب طول تقلبي
(وبدرة) خلفي والجبال و (جصان)
شواهق بالثلج الكثيف تكللت
كما كللت هام الجبابر تيجان
فمنهن عالٍ مشمخر ودونه
ومنهن كاسٍ بالنبات وعريان
كأن رواسيها مدافن شيدت
وقد دُفنت فيها قرون وازمان

ويسير الشاعر في رحلته الصعبة هذه مع الشعاب والمسالك الوعرة متبعاً اسلوب التوكيد والتفضيل كأنه يريد ان يقنع السامع بصدق المعاناة وشدة الاهوال التي تعرض لها مع اعضاء البعثة حتى بلغ الاعياء معهم مبلغاً شديدا ، فهزلت الركائب وتداعى الركبان من ظهورها واضطر القسم الأخر الى الترجل عنها ، فيصورها هذا التصوير الدقيق بقوله :

ركائبنا حسرى ، كسوابٍ ونهّضٌ
ونحن طلاع الارض رجل وركبان

اما بقية الرحلة فممتع لانك لا تحس معه ملالاً ، بل تشدك المشاهد وتأخذك[٤] التفصيلات التي احسن الشاعر وضعها في وصف مسيرته في هذه الرحلة الشاقة الممتعة ، لانها تمثل معاناة حقيقية وشعور صادق بتعب تعّرض له ، كما لعب الخيال دوره في صياغة الرحلة ، فحسّن الصورة واكسبها تشويقاً وطرافة ، كما ان تشبيهاته جاءت اكثرها معنوية ذهنية ، على ان الجانب الحسي كان فيها واضحاً ايضاً ، وان ذكرياتها كانت ما تزال عالقة في ذهنه ونفسه فسجلها حين عودته الى بلاده ، قبل ان يلف احداثها النسيان .

× × ×

ويجمل الشاعر محمد حسين كاشف الغطاء (١٨٧٦ ـ ١٩٥٤م) رحلته الى مصر حين قصد اليها ، عقب اداء فريضة الحج عام ١٩١١م[٥] فيصف اولاً سفره (بالقطار) الذي اقله من الحجاز الى بلاد الشام في المرحلة الاولى من رحلته ويسميه (ابن البخار) ، ثم بعدها يصف المرحلة الثانية منها وهي (سفرته الى مصر) بالباخرة، فيصور اهوال البحر ، وما تعرض له من اتعاب ومشاق ابان الرحلة الطويلة ، حين يقول :

اجشمها اخطار كل مهولة
تماوت فيها الموتُ وانذعر الذعر

كل ذلك بسبب شوقه الى مصر ورغبته في رؤيتها وشدة هواه اليها ، وتحمله المشاق من اجلها ، ويقطع البحر ، وتمر الايام وهو في لجبه حتى يكتب الله له الوصول الى مصر ، فيدي فرحة عارمةٌ حين وصوله اليها :

هواي الى مصر ، الا هذه مصر
اعودُ الرجا ذاوٍ؟ وعود الهوى نضر

ثم يعود بعد هذا البيت بذاكرته فيصف ماعاناه من اهوال وعناء من اجل حلمه في مصر :

تمطى عليّ البر والبحر دونها
فما عاق عزمي البر عنها ولا البحر
فخضتُ اجاج البحر ، والبحر كالح
وجبت فجاج البر ، والبّر مغبّر
الى ان انالتني ابنة النيل باعه
ومدت لترحيب اصابعه الخمر

لكن مصر ، او الاقامة فيها ـ كما يبدو ـ لم ترق بعد ذلك للرجل ، وانه لم يلق فيها ما كان متأملاً منها ، من حسن الترحيب ، وصدق الحفاوة ، لذلك راح يتشكى من بقية ايامه فيها ، ومن اقامته في ربوعها ، ولم ينشرح صدره فيها ، فعاد يصف خيبة امله فيها ، وانخداعه ببهارجها وما سمعه عنها :

وقد غرني في الليل حسن ابتسامها
ويارب ليث للفريسة يفتّر
واعجبني في وطئها لينّ الثرى
ورب رمادٍ كامن تحته الجمر
فها انا ملقى في حنايا ربوعها
كأني فيها قد تناساني الدهر
نزيل ولا وجه يروق ولا رؤى
وضيف ولا ماء يروق ولا خمر
. . . .
رواسمة لم ينفسح لي صدرها
ولم ينشرح لي قط يوماً بها صدر[12]

× × ×

ويصف مهدي بن هادي القزويني الحلي (١٣٠٩ ـ ١٣٦٦هـ) رحلة له بسفينة شراعية انحدرت به مع الفرات من قضاء الهندية حتى الكوفة ومنها الى النجف بعربة تجرها الخيول على سكة الحديد (الترامواي) بارجوزة طويلة بدأها بحمد الله والصلاة على نبيه الكريم (ﷺ) ، ثم يصف انزال الامتعة الى السفينة ، ثم سريانها في النهر ذاكراً بعض المواقع والمدن والعشائر التي مرّ بها ، ذكراً مباشراً خالياً من الخيال ، بعدها وصف تذكره لاهله في الهندية وشوقه لهم ، حتى يصل الى الكوفة فيصف بعدها رحلته البرية بعربة الحديد الى النجف[13] .

اما الشاعر كاظم الدجيلي (المولود سنة ١٨٨٤م) فسلك الطريق ذاته الذي سلكه قبله زميله الحلي في رحلة نهرية اخرى ، ولكن صعودا في الفرات ضد التيار من (الكوفة الى الهندية) ، وهي لاشك رحلة اشق . فالوقوف ضد التيار غير الاستسلام له او المسير معه ، ناهيك عن مقاومته وشقه ، لذلك كانت رحلة الدجيلي اكثر متعة من رحلة الحلي ، واحلى نكهة ، وكان وصفه لها اكثر سبكاً واعظم تشويقاً ، فضلاً عن قدرة الدجيلي الفنية التي تفوق قدرة زميله الحلي ، لانه كان يمتلك خيالاً ارحب ، واداة ادق ، وثقافة اوسع ، فهو قد ركب زورقاً من الزوارق البخارية التي سماها (بنات الماء) جرت فوق سطحه وشقت عبابه فترك على صفحة النهر الهادىء امواجاً عالية تضرب جرفيه بشدة ، والزورق يصعد في الفرات والماء يتحدر تحته ، ثم يصف الطريق الذي مرّ به ، وشواطىء النهر وما نبت عليها من اشجار باسقة ونخيل عالية ، وهامات الصفصاف المتمالية التي تقف على الجانبين بشموخ وكبرياء . وقد تهب الريح فتعبث بغصونها فيكون لها انكسار واعتدال ، اما الزورق فيمضي صامداً صاعداً الى اعلى الفرات من غير ان ينحني للريح ، او يوقفه عتوّ التيار ، (وهكذا يمضي بنا الدجيلي في هذه الرحلة المثيرة وما جاءت عليه من حسن السبك وجمال الصور ورشاقة اللغة . غير ان عنصر الخيال كان فيها قليلاً ، فضلاً عن انه لم يذكر ايّا من المدن التي شاهدها او المواقع التي مرّ بها غير ما وصفه من حسن الطبيعة وجمال النهر وقوة الزورق وارتفاع الموج[14] .

× × ×

هذه احدى رحلات الدجيلي داخل العراق ، على ان له رحلات (نثرية) اخرى غيرها الى خارجه «فقد رحل . . . رحلات عدة الى ايران وكردستان واطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الاعراب . . . وكتب عنهم كتاباً (عام ١٩١١م) ، ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة . . . وألّف في تلك الرحلة كتاباً ممتعاً ، لكن الكتاب ضاع . . . ورحل في ١٩ آذار سنة ١٩١٣ الى الفرات وكربلاء وشفاثا وقصر الاخيضر والنجف وعريسان والشامية والديوانية وكتب فيها كتاباً . . . كما

وصف رحلته . . . وما شاهده . . . في تلك البلاد والقبائل واحوال اهلها الاجتماعية وعوائدهم . . . بكتاب آخر باسم ـ رحلة الفرات ـ . . . . »[٥]

اما آخر الرحلات (الشعرية) التي نذكرها في هذا البحث مما سجله الرحالة العراقيون الكثيرون في مطلع القرن العشرين ، هي رحلة الشاعر خيري الهنداوي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٧م) الذي وصف هو ايضاً رحلة نهرية قام بها في شبابه من بغداد الى الصويرة بمركب بخاري معتمدا ظهر دجلة اذ «سار به المركب من بغداد صباحاً فوصلها عند الغروب»[٦] وتضارع قصيدة الهنداوي هذه في وصف رحلته قصيدة زميله الدجيلي ان لم تزد عليها حسن تصوير ورقة خيال وجمال تشبيه ، فهو يصف بداية الرحلة انها قبيل الصبح عندما كان (الليل يناجي الصباح قبل الشروق) ، ثم يبدأ (الابحار) في النهر اذ يبدأ المسير حين تشرق الشمس فيبدو شعاعها من خلال الاشجار كأنها السيوف اللامعة او (بيضٌ تُسَلُّ في يوم ضيق) حتى اذا ما واصل المركب البخاري سيره ، وبتوسط النهار ، تشتد اشعة الشمس حتى ترتد عنها العيون (حُسّرا عند شدة التحديق) ، وهكذا يصف نهار الرحلة من صباح الاقلاع حتى غروب الوصول ، كما لم يفته ان يذكر معالم الطريق ، ومشاهد الشواطىء ، ومناظر البساتين ، واصطفاف الاشجار وتغريد الطيور ، كما يعود الى وصف منازل الشمس في شروقها وتدرجها منذ الصباح حتى المساء ، فهي في الفجر ما تزال في خدر الافق ، وحين تبزغ فهي كفتاة حيية خجلى ، ثم من ارتفاعها رويداً رويداً حتى يشتد عودها وتقوى شوكتها فتصير متحدية . حتى لايجسر احد على مواجهتها ، ثم ميلها للغروب بتمهل وذلة وانكسار وهي تمشي حينذاك على استحياء كأنها عذراء تخشى عيون الرقباء ، هذه وغيرها من الصور التي ابدع الشاعر في رسمها . لنستمع الى هذا المقطع من هذه الرحلة الممتعة :

فوق نهرٍ تشتق عباب الـ
ـماءِ شقّا بزفرة وشهيق
ذات كفين يقذفان مياه النهر
قذف الصخور بالمنجنيق
لم يكلا طول النهار رفيفاً
والدجى يقطعانه بخفوق
رحلت بي من الرصافة والليل
يناجي الصباح قبل الشروق
فتبدي للعين قرن من الشمـ
ـس بدا في تلالؤ وبريق
واكف الشمال تنسج في الماء
دروعاً من النسيج الرقيق
× × ×

. . . . . [٧]

الهوامش والمصادر

١ ـ تقصد بمطلع القرن العشرين : الربع الاول منه

٢ ـ يُنظر عن تلك الرحلات وأزمانها : ادب الرحلات ـ احمد ابو سعد . ص١٧ ـ ٢٢٦ . دار الشرق الجديد ـ بيروت ١٩٦١ .

٣ ـ يُنظر عن نشاط العرب والمسلمين في مجال الرحلات حتى القرن الثامن الهجري : ادب الرحلات عند العرب في المشرق ـ علي حسن هلال الله ـ مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧٨ ، كما حفلت كتب التاريخ والاخبار بنشاطهم وتحدثت عن رحلاتهم حتى القرن العاشر الهجري .

٤ ـ انظر اخبار الكثير منهم في كتاب : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ لونكريك ـ ترجمة جعفر خياط طبعة ٣ مطبعة البرهان ـ بغداد ١٩٦٢ ، وكذلك في كتب كثيرة مطبوعة تجدها في فهارس المكتبات تحت عنوان (الرحلات) .

٥ ـ لقد طبع هذا السفر الكبير في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١هـ .

٦ ـ انظر عدداً من مؤلفاته في كتاب (المسك والاذفر) لمحمود شكري الالوسي جـ١/١٦ ـ ٢٠ الطبعة الاول . مطبعة الآداب ـ بغداد ١٩٥٨ . وانظر ترجمة العلامة ابي الثناء الالوسي في المصدر نفسه ص« ، وفي مجلة العراق الادبية في القرن التاسع عشر ـ الدكتور محمد مهدي البصير ص ٢١٩ ـ ٢٥١ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٦ .

٧ ـ انظر : المسك الاذفر ١٣ ـ ١٤

٨ ـ بدأت الرحلة من غرة جمادي الاخرى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م وانتهت في الخامس من ربيع الاول سنة ١٢٦٩هـ .
انظر : المسك الاذفر ١٣ ـ ١٥

٩ ـ منهم صديقه الشاعر البغدادي عبد الغني جميل (١٧٨٠ ـ ١٨٦٣م) الذي أرّخ الرحلة تاريخاً جميلاً في قصيدة طويلة ، واثنى على ما جاء فيها من قصص واخبار وطرائف واسلوب بديعي ، هام به ابناء عصره . قال في اولها :

قُ من رحلة حارت بها الفِكَرُ
فلم تكن في سواها اليوم تفتكر

وجاء فيها :

جلّت عن الوصف لا شيء يشابهها
الّ وكل معانيها لنا غرر

انظر : مجموعة عبد الغفار الاخرس . ص ١٢٧ نشرها عباس العزاوي . بغداد ١٩٤٩

١٠ ـ غرائب الاغتراب ـ شهاب الدين ابو الثناء الالوسي ـ ص٢٥ مطبعة الشابندر ـ بغداد ١٣٢٧هـ

١١ ـ المصدر السابق ص٢٥

١٢ ـ المصدر نفسه ص ١١٣ ومابعدها .

١٣ ـ الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ـ فريق المزهر ال فرعون جـ ١/٥٧ مطبعة النجاح ـ بغداد ١٩٥٢ .

١٤ ـ رحلة في بادية السماوة ـ محمد رضا الشبيبي ص١ مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٥

١٥ ـ رحلة في بادية السماوة . ص : هـ .

١٦ ـ المصدر السابق ص١٦

١٧ ـ انظر ترجمته في مقدمة ديوانه : ديوان عبد الجليل البصري الطباطبائي ـ المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٦هـ .

١٨ ـ ديوان عبد الجليل البصري . ص٣٧ .

١٩ ـ المصدر السابق ٣٧ ـ ٤٦

٢٠ ـ انظر ترجمة الشاعر في : شعراء بغداد ـ علي الخاقاني ٢/٤١٩ مطبعة اسعد ـ بغداد ١٩٦٢ ،

وشعراء كاظمين ـ الشيخ محمد حسن آل ياسين ١/١٢٧ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٨٠ ، وقد لقبه الشيخ ال ياسين بـ(الكاظمي) ، بينما لقبه الشيخ الخاقاني بـ (البغدادي).

٢١ ـ تُنظر الرحلة الكاملة في : شعراء الغري ـ لعلي الخاقاني ٢/٤٢٠ ـ ٤٣٠ ـ المطبعة الحيدرية ـ النجف ١٩٥٤ ، و: شعراء كاظمين ١/١٦٦ ـ ١٧٨

٢٢ ـ شاعر العرب . عبد المحسن الكاظمي ـ للدكتور محسن فياض ص٦٠ ـ وزارة الاعلام ـ بغداد ١٩٧٦

٢٣ ـ من قصائده : (نعم اهل مصر انتم خير امة ، و: دعوني اجوب هذي الديار ، ورحلة مصر) انظر : ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب ـ المجموعة الاولى/٤٦ ـ ٧٦ نشرها حكمة الجادرجي . الطبعة الاولى . مطبعة ابن زيدون .

٢٤ ـ ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب م ١/٤٨ ـ ٤٩ . وقد جاء الشطر الاخير في الديوان : (هذه مصرنا اعرفوا) ، ولكنه جاء في كتاب الدكتور محسن فياض (شاعر العرب ـ عبدالمحسن الكاظمي ص٧٣) :

(هذه مصرنا فاعرفوا) ، فآثرت الثانية لانها اجمل وابلغ وخالية من الزحاف الذي تحمله عبارة الديوان .

٢٥ ـ ديوان الكاظمي ـ شاعر العرب م١/٥٤ ـ ٦٢

٢٦ ـ المصدر السابق م١/٦٣ ـ ٧٦

٢٧ ـ مجلة البلاغ (البغدادية) ، لصاحبها السيد محمد الهاشمي جـ ١ الشهر الاول ١٦ نيسان ١٩٢٢ ص١٨ .

٢٨ ـ شعر البند : نوع من الشعر العربي يعتمد التفعيلة بدل نظام الشطرين ، ويكتب على شكل النثر . ينظر عنه : (قضايا الشعر المعاصر) نازك الملائكة ص ١٩٥ الطبعة الخامسة ـ بيروت ١٩٧٨ ، والبند في الادب العربي ـ لعبد الكريم الدجيلي .

٢٩ ـ انظر قسماً منها في : البند في الادب العربي ص ٦٧ ـ ٨١ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٩ . والبابليات ـ لمحمد علي اليعقوبي جـ ٢/٤٩ ـ ٥٣ مطبعة الزهراء ـ النجف ١٣٧٣هـ

٣٠ ـ المقصود بالجسر هنا : جسر الحلة القديم وهو بداية الرحلة .

٣١ ـ البير : منطقة بين الحلة وبغداد في منتصف الطريق تقريباً ، كانت تسمى (خان النصف) او (بير النصف) .

٣٢ ـ ابو يوسف : هو القاضي (ابو يوسف) المعروف ، وجامعه موجود في الكاظمية ، وهو في الاصل داره التي كانت مجتمع اهل الفقه والفضل .

٣٣ ـ الشاهات ـ المقصود به شاهات الفرس ، جمع شاه وهو الملك .

٣٤ ـ النعمان : هو الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي .

٣٥ ـ السوق الجديد : المحلة المعروفة في بغداد في جانب الكرخ ، وكان يسكن فيها جماعة الشاعر واصدقاؤه ممن يجتمع بهم من الادباء امثال عبد الغفار الاخرس وعبد الباقي العمري ، وغيرهم .

٣٦ ـ المصدر : مجلة البلاغ (البغدادية) جـ ٦ السنة الاولى ١٠ تموز ١٩٢٢ ص١٨٢ ـ ١٨٨ ـ وانظر القصيدة في : البند في الادب العربي ٧١ ـ ٧٢

٣٧ ـ منها مثلا رحلة محمد شرع الاسلام الى ايران سنة ١٨٨٨م . انظر : شعراء الغري لعلي الخاقاني ١٠/٣٥٥ ـ ٣٥٨ ، ورحلة الشاعر عبد الباقي العمري في نهر الفرات ـ انظر : الترياق الفاروقي ص ١٠٠ ، النجف ١٩٦٤ ، ورحلة الشيخ محمد حسن كبة من النجف فالكوفة براً ، ثم عن طريق النهر الى الهندية ومنها الى كربلاء براً ، انظر : نهضة العراق الادبية ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، كما وصف الشاعر محسن الخضري رحلة مهدي القزويني الحلي الى الديار المقدسة سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م انظر ديوان محسن الخضري ص ٥٩ ـ المطبعة العلمية ـ النجف ١٩٤٧ ، وغيرها .

٣٨ ـ انظر القصيدة كاملة في : شعراء الغري ٧/٢٤٣ ـ ٢٤٩ ، وانظر ترجمة الشاعر في المصدر نفسه ص ٢٤٠

٣٩ ـ ديوان الشبيبي ـ محمد رضا الشبيبي ص ١٢ ، القاهرة ١٩٤٠ .

٤٠ ـ المصدر السابق ١٢ ـ ١٣ ، وحلوان مدينة عراقية تقع شرق العراق بالقرب من بدرة وجصان

٤١ ـ ذكر الشيخ علي الخاقاني في شعراء الغري ٨/١٢٠ : ان كاشف الغطاء سافر عام ١٩١١م الى الحج ، ومن هناك توجه الى الشام ، ثم الى بيروت ومنها الى مصر ومكث في ربوع الشام ومصر في سفرته هذه ثلاث سنوات . انظر ترجمة الشيخ كاشف الغطاء في المصدر نفسه ٨/٩٩ ـ ١٣٤

٤٢ ـ انظر القصيدة كاملة في : الادب العصري في العراق العربي ـ رفائيل بطي ٢/٧٧ المطبعة السلفية بمصر ، القاهرة ١٩٢٣م . وفي شعراء الغري ٨/١٦٤ ـ ١٦٥ .

٤٣ ـ انظر الارجوزة كاملة في : شعراء الحلة ـ لعلي الخاقاني ٥/٣٨١ ـ ٣٨٣ المطبعة الحيدرية ـ نجف ١٩٥٢ ، وانظر ترجمة الشاعر في المصدر نفسه ٥/٣٨٠ .

٤٤ ـ انظر القصيدة كاملة في : الادب العصري ١/٢١٧ ـ ٢١٨ ، وانظر ترجمة الشاعر في المصدر نفسه ١/١٨٧ ـ ١٩٤

٤٥ ـ المصدر السابق ١/١٨٩ ـ ١٩٢

٤٦ ـ خيري الهنداوي ـ الدكتور يوسف عز الدين ص ٢٧٧ الطبعة الثانية ـ مطبعة الشعب ـ بغداد ١٩٧٣ .

٤٧ ـ انظر القصيدة كاملة في المصدر السابق ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .